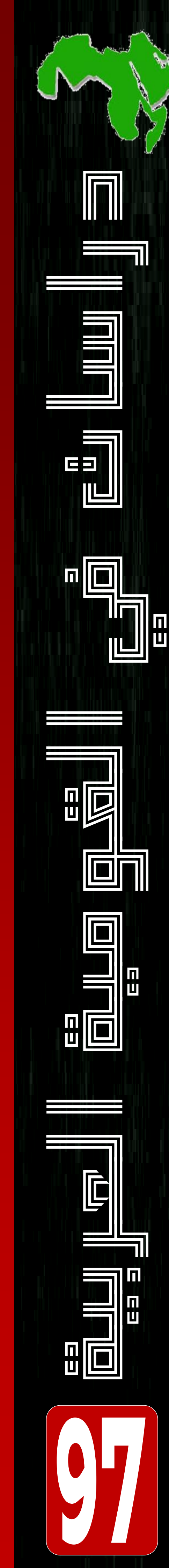
الشهيد محمد عمران



مقدّمات في القومية العربية والوحدة







مُقدّمات في القومية العربية والوحدة

بقلم الشهيد محمد عمران
بيروت 1971

في القومية العربية :

ان الوحدة هي التجسيد التاريخي والجغرافي والثقافي والاقتصادي للقومية العربية . ولذلك فليس ثمة انفصال نظري أو تطبيقي بين مفهومنا عن القومية ومفهومنا عن الوحدة . فكلاهما وجهان لمضمون واحد ، لا يمكن لاحدهما ان يقوم بدون قيام الآخر . ذلك أن القومية العربية ليست فكرة مجردة أو منفصلة عن الممارسة الوحدوية ، التي تحققها ، وتحولها الى كيان تاريخي مادي محسوس . وبالتالي فان القومية العربية ليست نظرية فكرية، لا أساس لها في المجتمع . بل على العكس فان الموقف المثالي القديم هو الذي جعل من القومية اطارا مجردا فضفاضا لا كيان له ، ولا مضمون له في المجتمع او التاريخ المتحقق بالفعل ، فكانت أشبه بنظرية شعرية ، أو نزعة أدبية ، لا ترى في الامة الا ما كان متحققا منها في تراث الثقافة اللغوية ، وفي بعض الأحداث التاريخية الكبرى . فاهملت بذلك وجود الأمة كمجتمع بشري له قوانين علاقاته وتطوراته الفكرية والمادية . وجعلت من مفهوم الأمة اشبه بوثن للتأمل والعبادة ، أكثر منه للفهم والتحليل على أرضية الواقع ، ومن خلال صيغ الصراع الاجتماعية المتشابكة المستمرة .

ان تجريد القومية من الامة ، والامة من المجتمع ، يضعها على صعيد المفاهيم العنصرية ، ويخرجها من اطار الزمان والمكان ، ويرفعها الى مرتبة المفاهيم الميتافيزيقية . وبالتالي يسهل تحويلها الى أداة للاستثمار من قبل الطبقات او الفئات المسيطرة سياسيا واقتصاديا ، في سبيل التنافس على مراكز القوة في المنطقة ، وفي الاطار الدولي . وذلك ما حدث للقوميات الاوربية منذ القرن التاسع عشر ، وما راينا بعض ملامحه الرديئة في الانظمة الحزبية والديكتاتورية عندنا .

ولقد كادت القومية العربية ان تقع في شرك هذا النوع من التجريد والتعالي الميتافيزيقي على يد بعض الأحزاب القومية ، فادى ذلك ، على مستوى الثورية العربية والتطبيق السياسي ، الى رصيد ضخم من الانحرافات والمزالق ، والمواقف الفاشية والغوغائية ، سبق لنا ان أتينا على تحليلها في غير هذا الموضع من البحث . والحقيقة فان المواقف الحزبية

والسياسية المتناقضة الآنية ، قد احاطت مفهوم القومية العربية بطبقات صماء من التعليلات المغلوطة • والصقت بها من الصفات والتبعات ، مالا طاقة ولا علاقة لها بمثليها •

ولقد كان من أخطر الأسباب التي دفعت الى هذا البحران ، هو أن المفهوم القومي ، لم يدرس او يوضح الا من خلال الحاجات السياسية اليومية لايجاد ارتكاز فكري موقت • فبقي هذا المفهوم مرتبطا بالحكومات والأحزاب والزعماء ، كل يفسره على هواه ، وحسب ضرورات الصراع السياسي في حينه •

ولذلك افتقدت القومية العربية دائما الأساس العلمي الذي ترتكز اليه باعتبارها تمثل واقعا حقيقيا ، لا موقفا يوميا عابرا ، أو حالة جزئية عارضة •

واذا ما حاولنا الآن أن نبحث عن مثل هذا الأساس العلمي للقومية العربية ، وجدنا جذره الأول مرتبطا بالواقع الاجتماعي للامة العربية منظورا اليه من خلال سياق تطوره الذاتي عبر التاريخ المتحقق • تلك النظرة التي تستطيع أن تكتشف ، عبر تواصل التجارب الحضارية الكبرى ، ايقاع الوحدة في المعاناة والفعل والممارسة الاجتماعية والتاريخية •

فبدلا من أن نقول مع المثاليين والعنصريين ، ان الأمة حققت وحدتها باعتبارها جوهرا سرمديا سابقا على تحققات الاقتصاد والاخلاق والسياسة والثقافة ضمن المؤسسات الاجتماعية، وأن هذه التحققات ليست سوى تجليات زمانية لا معنى لها في ذاتها ، ولا قيمة لها في واقعها المحسوس أن لم ترتد الى الاصول الميتافيزيقة المنبثقة عن جوهر الأمة الأبدي ، فاننا نعكس هذا الموقف لنبلغ الوضع الطبيعي . فنرى أن الانتماء لقومية واحدة انما تحدده ظروف المعاناة الاجتماعية ، فتشف ظواهرها المعقدة عن وحدة علاقة تربط مختلف الفعاليات وتجعل منها كلا متجانسا في تنوع تحققاته ، واشكال ممارساته الجماعية •

أي أن ما يميز قومية عن أخرى ، ليست هي الاطر المجردة ، من عنصر ولون وتعال ميتافيزيقي صوري ، ولكنها هي المضامين الحضارية ، التي تحدد فعالية الأسر البشرية ، بحسب ظروفها الموضوعية الخاصة بها • وبالتالي فلا بد من تحليل تلك الظروف لكل أمة ذات حضارة متحققة ، لكي نكتشف عن شخصية قومية متميزة •





فلا معنى للانتماء الى امة ، ان لم تكن ذات حضارة ،أي ذات فعالية تحققت في صور العلاقات الاجتماعية المتطورة حسب مثل عن العدالة والحرية والعمل الانساني ، والابداع الفردي والقومي ٠

فالانتماء الى أمة العرب الجاهليين ، بحسب هذا المبدأ ، يختلف عن الانتماء الي أمة الفتوحات الاسلامية ، الى أمة الامبراطورية العباسية ٠ وكذلك يختلف انتماؤنا اليوم الى الامة العربية المعاصرة ، اذ ليس الانتماء هو الارتباط المجرد بالسلالة او ما يشبهها من الاطر الفارغة ، ولكنه هو الارتباط العضوي بوحدة الظروف الموضوعية ، التي تحدد المضمون الحضاري ، خلال دورة تاريخية متميزة ٠

غير أن ذلك لا يعني أن ارتباطنا الحاضر ، بمضمون القومية العربية العصري ، يعزلنا عن الانتماء الروحي لتاريخ هذه القومية ، منذ أعصرها الجاهلية والاسلامية والانحلالية ، بل على العكس ، فان هذا الارتباط الحاضر بمضمون القومية العربية العصري ، هو الذي يتيح لنا أن نطل على ماضينا من خلال هموم الحاضر وقضاياه المصيرية ، لا أن نجعل من هذا الحاضر تابعا تافها لانجازات الماضي ، فنلغي بالتالي وجود مستقبلنا ، ونمارس غيابا ماديا وفكريا عن معارك مصيرنا في العصر ٠

ان الظروف الموضوعية التي تحدد الاطار الواقعي لمضمون حضارة ما ، ليست هي ظروف العلاقات المادية فحسب ،، ولكن الامم والمجتمعات تحددها كذلك خصائصها التاريخية والفكرية والبشرية ، وتدخل هذه الخصائص في جماعية الظروف الموضوعية ، حتى قد يكون لها من الأثر أحيانا ما يفوق في قوته أثر اي ظرف مادي آخر ٠ هكذا مثلا مارست أنواع الحتميات الغيبية سلطانها الأكبر في تثبيت واقع التخلف العقلي والاقتصادي للامة العربية عصورا طويلة ، عندما فرغت قوالب الحضارة الماضية من حيوية الابداع والتغيير ، وتحولت الى مبادىء مطلقة ، تكبل المستقبل وتجهض امكانياته قبل أن ينمو ويتكون ، بحسب انطلاقته الواقعية الخاصة ٠ معنى هذا أن الظروف الموضوعية لقومية ما لا تحددها العوامل المادية المباشرة فحسب ٠ ولكن العوامل الذاتية ، المتحجرة منها خاصة ، هي بمثابة شكل من اشكال الحتميات القاسية المسيطرة . ومن هنا جاء الطابع النضالي لمضمون القومية العربية المعاصرة ٠ انها القومية المكافحة من أجل التحرر من حتميات الحضارة المنقرضة في سبيل ميلاد الحضارة الجديدة المعاصرة ٠ ولذلك كان نضالها مزدوجا ، يتوجه الى الظروف الموضوعية والعوامل الذاتية السلبية في الوقت ذاته ٠

وبقدرما ما تتضح دوافع هذا الكفاح في ثورية الحرية الحضارية الشاملة ، بقدر ما ينمو مضمون وحدوي جديد للقومية العربية • فهنا تتجاوز القومية العربية خصائص وحدتها الشكلية ، الى وحدة الكفاح الوجودي الشامل ، من أجل الأمة العصرية العادلة •

فبدلا من أن ترتبط القومية العربية بما يوحدها موضوعيا وسكونيا ، كعوامل التاريخ والثقافة الماضية ، واللغة والاعتقاد والأرض وسواها ، فان ما يؤكد وحدتها الجديدة هو طابعها التحرري الدينامي المعاصر ، تلك الفعالية الجماعية المتولدة عن وحدة الصراع الواعي ما بين ظروف التخلف ، ودواعي التقدم الشامل •

ان الانتساب الى أمة يحدد مجرد هوية مادية ، لا قيمة له ان لم يتحول الى تفاعل مع امة المستقبل ، مع الامة التي لم توجد بعد • ومن هنا فالقومية السليمة هي الانفتاح الموضوعي على شروط التغيير الكلية في واقع المجتمع العربي ، محددا بواقع المجتمع الانساني من حوله •

ومن خلال هذا السياق الحركي الواقعي ، لا يمكن للجديد أن يولد نسخة عن القديم ، والا انغلق التاريخ ، وبات بدون مستقبل كليا • بل ان الفعالية التحررية ، تجسد شخصية القومية المكافحة وتميزها عن القومية المتسلطة والعنصرية ، وعن القومية الغيبية والاسترجاعية – أي المكررة لانماط الماضي – •

فهي القومية التي تجعل انتساب اجيالها الحاضرة مرتبطا بقدرتهم على تغيير ظروف العقم الحضاري الذي يكبلهم ، ذلك التغيير الذي يدفع عنها اغلال الغيبيات الماضية ، كما يدفع عنها ظروف القصر والاستغلال الاجتماعي ، والتحكم الخارجي • ان قوميات المجتمعات المتخلفة في ظروف صراع العصر الحاضر ، هي القوميات الحاملة لعبء الثورة العالمية الشاملة • وكسر حصار الحتميات المتصالبة عندها مصالح الاستغلال ، المكثفة لدى القوميات العنصرية الرأسمالية • بمعنى ان حركة التاريخ في اتجاه الثورية الحضارية لم تعد في مستوى العلاقات الطبقية المغلقة داخل المجتمعات المتقدمة ، ولكن هذه الحركة اتخذت مسرحا دوليا عالميا ، واستقطبت صراعها الأكبر ، من خلال نضال القوميات المتخلفة ، ضد حتميات الصراع ما بين المسكرين العالميين ، من جهة ، والصراع الامبريالي التخلفي من جهة اخرى •

وبذلك كانت قوميات الشعوب الجديدة بالضرورة قوميات غير منغلقة ،



بل أن انفتاحها على مسرح الصراع العالمي من ناحية ، ومشاركتها في معركة هذا الصراع من ناحية ثانية ،يؤلف مصيرها التاريخي ، اي انها بالضرورة معاكسة تماما لاشكال القوميات العنصرية والامبريالية • وليست يقظة الشعوب الآسيوية والافريقية اليوم الا التعبير العالمي المتجسد عن طبيعة هذه القوميات الجديدة ، وهي طبيعة تحررية ، من حيث انها تتجه الى ازالة استثمار الامبريالية الدولية • وانسانية ، من حيث انها تهدف الى تحرير الانسان اينما كان بتحقيق انهيار الأنظمة الاحتكارية العالمية • تلك الأنظمة التي تواجه الآن محنتها الأخيرة في تعاظم تناقضاتها الذاتية من جهة ، وفي اشتداد صراعها مع أكثرية شعوب العالم المكافحة، المنطلقة بقومياتها الشعبية الجديدة ، من جهة أخرى •

والقومية العربية في صورتها العصرية ، ولدت من خلال اشد أشكال المعارك المصيرية وأعنفها ، التي عرفها تاريخ اليقظة القومية الحديثة • فهي اذن وليدة الواقع النضالي لأمة حددت هويتها من خلال صراعها للفوز بحريتها السياسية ، ودورها الحضاري الجديد • فجاءت هذه الهوية لتتجاوز كل انتماء صوري ، أو ارتباط عصبي ، أو احتواء مادي ، وكانت رابطتها الأقوى مرتكزة الى فعالية الامة ، وهي تواجه تحديات التغيير الاجتماعي الشامل ، وتعيش منعطفات الثورة على الذات ، وعلى عقبات العالم الخارجي •

فالقومية العربية ثورية بالضرورة كذلك ، لانها تؤلف الصورة الموحدة لنضال الأمة المعاصرة في سبيل التحرر والتقدم • وهي فضلا عن كونها ذات جذور ضاربة في أعماق التاريخ العربي ، الا انها تؤكد استمرارها بتجاوز الانتماءات الجامدة ، وفرض الانتماء الى ثورية التغيير • ومن هنا كانت الوحدة العربية هي السياق الموضوعي الوحيد لتحقيق ثورية التغيير ، من خلال وحدة الانتساب للقومية العربية • وبقدر ما تتضح معالم النضال الوحدوي ، بقدر ما تتحول القومية من هوية تاريخية ، الى مصير وجودي راهن ، يؤلف بنية النهضة الحضارية الجديدة •

واذا كان اختفاء معالم الوحدة السياسية لم يطفيء جذوة الانتماء للقومية العربية طيلة عصور ، فان تحقق النضال الوحدوي التقدمي الجديد ، سوف يحول هذا الانتماء الى مشروع حضارة عربية القلب والوجه ، عالمية الأداة والبناء الاجتماعي والمادي •

* * *



اليسار ومشكلة الوحدة العربية

ان خصوصية الثورة العربية ، تنبع اولا ، من كونها ثورة قومية ، وثورة اجتماعية وديمقراطية في نفس الوقت • ولذلك فان كل فصل بين الهدفين في سياق هذه الثورة ، الوحدة والاشتراكية ، انما هو تعطيل لكينونة الثورة العربية من جذرها التاريخي • وكذلك فان تقليد الديكتاتوريات الاشتراكية العالمية ، في بعض الاقطار المحكومة بشعارات الاشتراكية الاقليمية ، انما يؤدي بهدف الحرية الذي يؤلف أعمق محرك للمجتمع العربي المتخلف المستعبد •

ان هذه الحقيقة أصبحت بمثابة البديهية الاولى ، في معطيات الفكر العربي الثوري الاصيل • ولكن هذه البديهية لاقت عواصف حاولت ان تزعزعها ، وان تلقي عليها ظلال الغموض والابهام • وكان ذلك بسبب ما تلقاه الثورة العربية من جذب اليمين القومي ، واليسار الاقليمي ، خارج معادلتها الاساسية •

فاليمين القومي يدعي انه يحافظ على المفهوم التقليدي للوحدة العربية ، قبل ان تتعاوره النزعات اليسارية والشيوعية ، من كل جهة • ولكنه غير جاد بدليل ان اي دعوة للوحدة بين الدول ذات الانظمة اليمينية لم تظهر الى حيز الوجود •

انه يرى ان هدف الوحدة يجب الا تعرقله شروط في التحويل الاشتراكي ، تصاحب كل خطوة وحدوية • ذلك أن الوحدة هي في الاساس انهاء لعهد التجزئة ، اي اعادة الشكل الطبيعي لوجود المجتمع العربي ، بدون حواجز سياسية مصطنعة •

ولذلك فان اليمين القومي ، لا يشترط شكلا سياسيا معينا لقيام دولة الوحدة ، بل هو يفضل الى حد بعيد ، قيام اتحادات شكلية بدون محتوى بين الانظمة السياسية الحالية ، بصورة لا تمس فيها بنية المجتمع والاوضاع الخاصة لكل قطر واقليم على حدة ، ولا تمس أوضاع الحكم فيه وتبقى الجماهير بعيدة ومعزولة عنه • وهذا يعني أن الوحدة او الاتحاد هي عملية اضافية كمية بين الحكومات ، لا تغير من طبيعة العناصر الداخلية فيها • وبالتالي ، فان مثل هذه الاتحاد او الوحدة اليمينية ، تريد ان تتحقق وتحافظ على القانون الاقتصادي الذي يحدد استغلال الحاكم للمحكوم بدون اي اصطدام



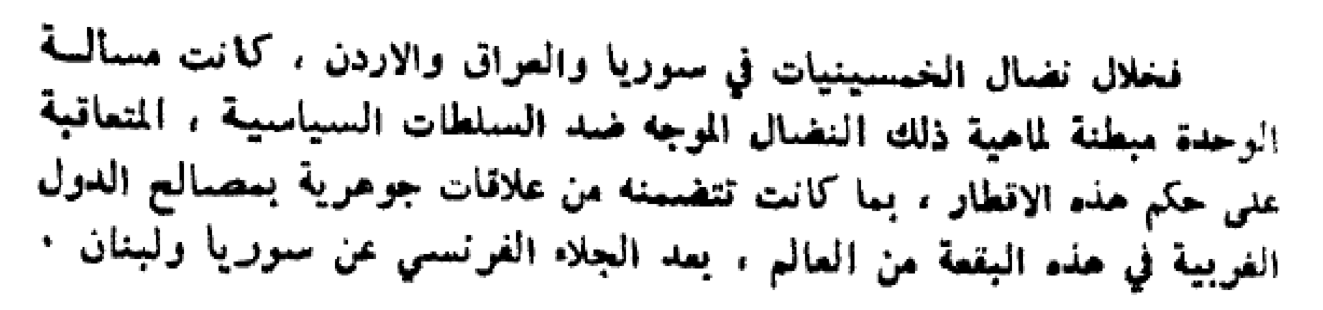
حقيقي ، مع المصالح الاساسية للاستعمار في المنطقة • ومع ذلك فان الحكومات الرجعية لن تسعى ابدا حتى الى اقامة اية وحدة بينها ، والا اصطدمت مع مخططات حليفها الطبيعي الدائم ، وهو الاستعمار الذي يناوىء قيام ايـــة وحدة ، ولو كانت وحـدة بين أنظمة رجعيـة • ولهذا فان اليمين القومـي القديم ، يدعو الى جبهة حكومات رجعية او برجوازية او عشائرية ، تستطيع ان تقف في وجه الثورات الشعبية في اقطارها ، ويتحاشى ما امكنه الاضطرار الى اقامة دولة موحـدة •

ويجيء اليسار اللاقومي القديم ليتهم شعار الوحدة ، من خـلال الصورة التقليدية التي تنادي بها الفئات اليمينية في بعض اقطار المشرق ، بهـذا الشعار • تلك هي الصورة التي كانت تجليها الثورية العربية ، قبل طـرح مشكلة التحويل الاجتماعي والاشتراكي •

لقد كانت اقصى اماني الثورية العربية ، قبل طرح مشكلة التحويـل الاجتماعي ، هو اقامة وحدة عربية جزئية ، تصورها الدعاة الاوائل كنـواة للوحدة العربية الشاملة ، وكانت الدول العربية المرشحة لانشاء هذه النواة ، هي سوريا والعراق تارة ، سوريا والعراق والاردن تارة اخرى ، وسبقـت هذه التصورات ، جميعها ، احلام اعادة الوحدة السياسية لسوريا الطبيعية ، وتشمل هذه كلا من سوريا ولبنان وفلسطين والاردن ، ولم يتحقق شيء من هذه الامنيات حتى اليوم •

والواقع فان شعار الوحدة العربية ، عاني من اسقاطات عقائديةوسياسية مختلفة ، اسقتطها عليه الاحزاب السياسية ، التي كان لها ثمة ادوار مختلفة منذ الاربعينيات ، في هذه المنطقة ، والقت عليها الحكومات القطرية ظـلال مصالحها السياسية المختلفة • كما ان القوى الحاكمة ، بالتحالف مع بعض احزاب اليمين ، في كـل من سوريا والعراق ، طرحـت محـاور وحدويـة ، كمشروع الهلال الخصيب ، ومشروع سوريا الكبرى ، وذلكخلال الخمسينيات من هذا القرن بصورة خاصة • وقد كان لانهيار حكم نوري السعيد ، في ثورة تموز البغدادية ، اثر حاسم في انهاء مرحلة المحاور الوحدوية ، الهابطة مـن مصالح الطبقات الحاكمة ، والاحزاب المرتبطة بها •

ولا نريد نحن هنا ان ندخل في تفاصيل تلـك الارهاصات الاولـى ، للدعوات الوحدوية المشبوهة ، ولكننا نقيد البحث الان في الوحدة ، بزاويـة الملاقة باليسار ، الذي يؤلف الاطار الديناميي الراهن للعمل الثوري •


فخلال نضال الخمسينيات في سوريا والعراق والاردن ، كانت مسالة الوحدة مبطنة لماهية ذلك النضال الموجه ضد السلطات السياسية ، المتعاقبة على حكم هذه الاقطار ، بما كانت تتضمنه من علاقات جوهرية بمصالح الدول الغربية في هذه البقعة من العالم ، بعد الجلاء الفرنسي عن سوريا ولبنان ٠

والواقع فلقد التبس النضال ، ضد السلطات الحاكمة ، بالصراع ضد مشاريع الاستعمار ، وخاصة مشاريع الوحدة المحورية ، التي كانت تطرحها المروش ، مع مشاريع تقييد لتطور البلاد حسب التبعية الاقتصادية والسياسية الكاملة للامبريالية والبريطانية ٠

فالممارسة النضالية الخاصة ، هي البيئة الواقعية والجماهيرية ، التي كانت تنطرح من خلالها دعوات لمقاومة أشكال التبعية للاستعمار الجديد ، ومشاريعه السياسية والوحدوية المزيفة في المنطقة ٠

وفي حين كان بعض قادة الاحزاب ، وبعض المثقفين ، ينشرون من وقت الى آخر ، الآراء الوحدوية ، فان هذه الآراء ، كانت تتلون بظروف النضال اليومي ، وما تطرحه سياسة الشارع ٠ وكانت هذه الآراء تشعر بعسر وهي تحاول ان تفلسف احساسات طبيعة لدى الجماهير ٠ لذلك كانت الموضوعة الاساسية ، التي طورها ورددها باشكال وصيغ مختلفة ، المثقفون ، من حزبيين ومستقلين ، تعتمد على بداهة الايمان بالوحدة العربية ٠ واذا سعى بعض هؤلاء الدعاة للوحدة ، الى استخدام اساليب علمية تحليلية ، فلقد كانت هذه الاساليب تعتمد على التسليم أولا بموضوعة الوحدة ، ثم محاولة البرهنة عليها بمختلف الادلة ، من تاريخية وجغرافية ، من لغوية وثقافية ٠

لقد كان الطابع المميز لهذه الافكار الوحدوية جميعها ، هو خوفها الغريزي من معالجة الانفصال القائم ، بمخططات ودراسات قادرة على تغييره٠ اي ان التفكير بالوحدة ، بتلك الطريقة المجردة الصرفة ، كان مانعا من التفكير في نقيضها الموجود فعلا ، وهو الانفصال ٠ ومن هنا جاءت علة المفارقة الاليمة بين شعار الوحدة ، كهدف شعبي ، وبين واقع الانفصال ، كوجود قائم محسوس ٠ ولقد كان من اوهام هذه المرحلة المجردة ، في الدعوة الى الوحدة ، انها اعتبرت كل بحث في مقومات الانفصال ، هو انتهاك لحرمة ومثالية الوحدة ٠ ولربما كان ثمة عذر ظرفي لهذا الوهم او التحريم المثالي ، الذي طوقت به الدعوة الوحدوية ، وهو الصدام السياسي اليومي ، الذي كانت تعانيه الجماعات الحزبية القومية ، مع القوى المناوئة لها ، في السلطة ، وفي



الجماعات الدينية ، والاقليمية والطائفية • وبالمقابل ، فلقد كان اخطر ما عانته الدعوة الوحدوية ، هو انها لم تستطع ان تتجاوز ابدا ساحة العمل السياسي، لتصل الى ساحة العلم والرؤية العلمية المحايدة ، الباحثة عن الحقيقة الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية للوحدة ، وموانعها الموجودة فعلا في واقع الانفصال •

لقد كان من ثغرات النضال الثوري العربي ، انه كان مدفوعا بالغريزية والجماهيرية ، واللاشعورية المجتمعية العامة ، نحو مشكلة تغيير السلطات السياسية الحاكمة • حتى كان ثمة ايمان لا يتزعزع لدى جميع قادة هـذه المرحلة ، هو ان كل شيء يبدأ اولا بالسيطرة على الحكم • ثم على الحاكمين انفسهم ، ان يفكروا ، وان يخططوا وان ينفذوا احلام الثورية العربية كلها ، بعد ان يستولوا على السلطة •

ذلك ان الفكر القومي المعاصر ، لم يستطع ان ينمو بصورة طبيعيـة عفوية ، خارج البيئات المرتبطة بالاحزاب ، والعمل الحزبي • وعلى الرغم من ان بعض الاحزاب القومية ، كانت في بداية نشأتها ، تعتبر حركة حضارية ، وليست تحزبا سياسيا ، هدفه بلوغ السلطة ، الا ان جميع الاحزاب القومية والشيوعية التي لعبت ادوارا هامة ، خلال هذه الحقبة من تحول القضيـة العربية ، كانت في الواقع تحدد فكرها ، بحسب ضرورة العمل السياسي ، وتقلبات الظروف المحيطة به • ومن هنا كان هذا الفكر اقرب الى المختصرات والعناوين الصحفية • وكان فكرا منشوريا ـ نسبة الى المنشور الحزبي ، ان صحت النسبة ـ محددا بغايات المعارك الشارعية والبرلمانية ، وجبهـات الصراع اليومي •

غير ان هذه السلسلة من الحتميات التي حكمت الدعوة للوحدة العربية، قد وضعت شعار الوحدة نفسه على الطريق الصحيح من حيـث الممارسـة النضالية • وبقدر ما ترتفع ممارسة الاحزاب الى مستوى النضال القومي ، بقدر ما يأخذ شعار الوحدة المجرد ، جسما وتطورا عضويا واقعيا • وعلى العكس فكلما انحدرت الممارسة الحزبية الى مستوى الضرورات السياسية ، المقيدة بحسب منطق مصالح الفئات الموجهة لهذه الاحزاب ، فان شعـــار الوحدة يتقلص ويضمر ويصبح تابعا لمقتضيات الدعاية ، لا موجهـا حاكمـا لها ، عاليا فوق منطقها • ولعل من اكبر معالم أزمة الثورية العربية ، هو كون هذه الثورية تطمح الى تكوين حضاري شمولي للأمة ، في حين انها لا تجد ثمة معبرا لهذا الطموح الواسع ، الا من اضيق الابواب ، وهو باب السياسة • واية سياسة ، انها السياسة المرتبطة بالاحزاب ، والاحزاب المرتبطة بمصالح قياداتها ، والقيادات الهادفة دائما وابدا الى السلطة •



واذا تذكرنا ان هذه الاحزاب ، لم تستطع ابدا ان تكون اطارات جماهيرية حقيقية ، تعبر عن مصالحها بصورة ديمقراطية حية ، بل تدعي تمثيل الفئات الكادحة وتعتبر نفسها معبرة عن آمالها ، وبالتالي نائبة ومفوضة تفويضا اجباريا عنها ، وانها على العكس بقيت اسيرة افرازات للطبقات المجردة الصاعدة على سطح المجتمع الجماهيري ، من مثقفين وعسكريين وموظفين ، أدركنا حقيقة ما اصاب الثورية العربية بصورة عامة ، وهدفها التاريخي وهو الوحدة ، بصورة خاصة ، من تعثر بدلا من تطور ، ومن غموض بدلا من وضوح ، ومن تمزق بين الدعوات السياسية الحزبية المختلفة •

ومن التناقض الشمولي ايضا في ازمة الثورة العربية ، انها ستظل محكومة الى مدى بعيد ، بان لا تنمي فكرها الحضاري ، الا من خلال الممارسات السياسية ، التي ستظل هي بدورها ، اي هذه الممارسات ، موجهة ومحكومة بمبدأ صراع الوصول الى الحكم ، او الدفاع عنه ، او مركبات الانهزام منه • ومن أوضح انعكاسات هذا التناقض الشمولي ، على قضايا الثورية العربية الاساسية ، هو انعكاسها على قضية الوحدة •

فالمنطق الحزبي السياسي ، هو الذي ولد مفهوما اقليميا مصطنعا لوحدة سورية ، ارتبط بحزب اقليمي ضيق • والمنطق الحزبي السياسي ، نفئة الحاكمين الملكيين ، هو الذي افرز دعوات محورية لهلال خصيب ، يعارضه مشروع سوريا الكبرى • وفي مرحلة انتقال المبادرة السياسية الى بعض الاحزاب القومية ، فان المنطق السياسي الظرفي لهذه الاحزاب ، هو الذي جعلها تنشيء وحدة ، ثم تتساهل في انفصالها • ثم تتابع طرح اشكال من الدعوات الى الوحدة السياسية ، بحسب اتجاهات القادة لهذه الاحزاب واجنحتها لتمييع هذا الشعار واحاطته بالغموض والالتباس ، الى ان تصل اخيرا الى ما يشبه نوعا من الاجماع بين اوساط اليسار على تأجيل شعار الوحدة •

ونحن نستطيع ان نرى بكل بساطة ان هناك سلسلة من سياسيات الوحدة ، المرتبطة بمواقف الاحزاب ، ومصالح صراعها ، وقد دخلت في الحقبة الاخيرة بعض الدول كذلك الى هذا الصف • فهل الوحدة العربية هي سياسة ، لحزب او دولة • وهل ان مضمون الوحدة ، هو مجرد سلسلة من الاسقاطات الظرفية ، المتلاقية قليلا او كثيرا ، مع تحولات الممارسة في الشارع وفي السلطة !

الواقع التاريخي القريب ، يقول ان الوحدة العربية ، ويجب ان نعترف



بذلك ، لم توجه الا ضمن تيارات هذا النوع من الممارسة • ولذلك ، فلقد عانت مثل هذه الوحدة من جميع تقلبات هذه الممارسة ، من تقدم وتراجع ، ومن عقد آمال ، من نكسات ومشكلات عملية وفكرية ، سياسية وايدلوجية ، وا ذا كان ثمة فعالية لهذا النوع من الوحدة ، فان فعاليتها قد اتحدت مع جميع تناقضات السياسة الثورية وظروفها ، في هذه الحقبة الحافلة بالاحداث •

وليس ذلك ، لان الوحدة هي مجرد انعكاس آني متحول ، بل لان الاحداث القومية والاجتماعية الكبرى ، التصقت بالوحدة ، لان الوحدة هي المحرك التاريخي ، ولان جدلية العمل الوحدوي وضده ، العمل الانفصالي ، الداخلي والخارجي ، العربي والدولي حولها ، الحكومي والحزبي والشعبي ، وحتى الطبقي ، لان جدلية هذا العمل الوحدوي الانفصالي ، هو المحرك الاساسي ، هو التناقض التاريخي الاجتماعي الاعلى ، لواقع التحول والتحرك في المجتمع العربي الحديث •

ولذلك ، فان المظاهر السياسية لهذا المحرك الاساسي ، لا يمكن ان تختصره وتستنفده ولا يمكن ان تستهلكه بتقلباتها وتطوراتها المتناقضة ، وعلى العكس ، فان كل حركةثورية حقيقية عليها ان تحدد فعاليتها وممارستها بدئيا ، بالنسبة لديالكتية الوحدة والانفصال • ذلك ما لم تثبته النظريات بعد ، ولكن اثبتته كل الوقائع التي نطقت باسم الثورية العربية ، او حاربت ضدها خلال هذه المرحلة ، التي ما زلنا نعيش فيها •

وان بؤرة هذه الوقائع الكبرى ، كانت هي تجربة الوحدة السورية المصرية ،وفشلها ، وما تبع هذا الفشل من سلسلة احداث وتحولات ، ما زالت تتلاحق ، وهي كلها متأثرة باشكال ودرجات مختلفة باصداء تلك التجربة ، وما خلفته من حفر حقيقي في عظم المرحلة التاريخية كلها ، التي تحدد هوية الوجه المجتمعي والحياتي العام ، للوجود العربي المعاصر •

ان هذه التجربة وحدها ، يعود اليها فضل تحرر شعار الوحدة من العمل السياسي الحزبي ، الى العمل التاريخي الموجود الواقعي ، كما سبق ان بينا •

وانها هي التي وضعت حدا فاصلا بين كينونة وحدة مجردة ، وبين كينونة وحدة واقعية ، انها هي التي حولت التفكير الوحدوي المجرد الى الانفصال ، الى الواقع الانفصالي الموجود • ذلك ان العمل الوحدوي الحقيقي انما يبدأ من وعي الانفصال •

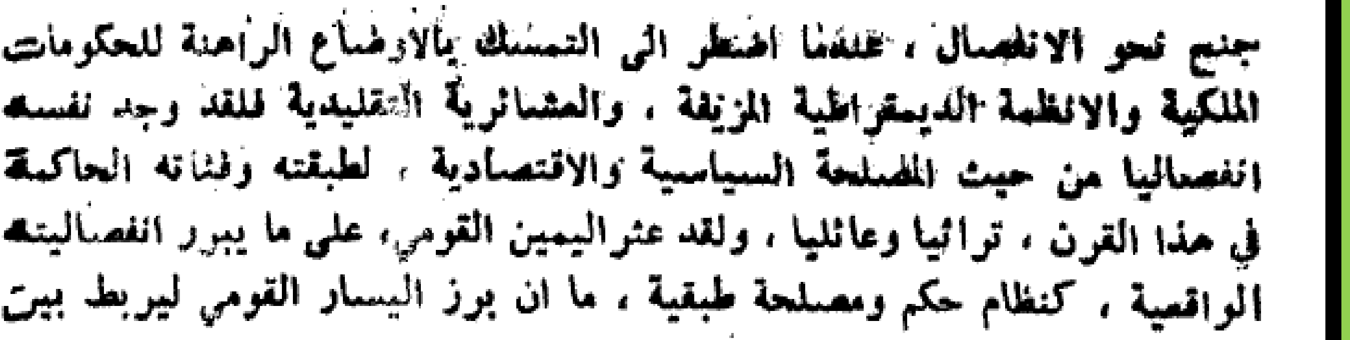
فقبل تجربة الوحدة التاريخية ، كان استمرار الانفصال التاريخي يدعى بالتجزئة ، وبعد فشل التجربة ، أصبحت التجزئة هي الانفصال • وان استمرار هذا الانفصال ، ليس هو الا بمثابة الوجود السلبي ، الذي يتضمن هو ذاته امكانية تدميره من داخله •

فالتناقض الحقيقي ، الاساسي في المرحلة الحالية ، ليس هو التناقض الاجتماعي الطبقي في المجتمع العربي فحسب ، ولكنه التناقض الوحدوي الانفصالي • اذ أن التناقض الطبقي هو أبرز تجسيد مادي حي للتناقض الوحدوي ، داخل كل قطر على حدة • وبالتالي فانه يؤلف المحور المتحرك ، الذي يجب ان تتبلر حوله قوى التناقض الوحدوي ، الانفصالي ••

ذلك ان عالمية الصراع الطبقي ، الذي هو المناخ الصحي الوحيد ، حسب النظرية الماركسية ، لكل صراع طبقي قومي مجتمعي ، يناظره عندنا ، عربية الصراع الوحدوي الانفصالي ، الذي هو الشرط والمناخ الوحيد ، لصحة الصراع الطبقي القطري ، لأن يتنفس وينمو عميقا وافقيا في وقت واحد •

ذلك ان البروليتارية الاجتماعية في الشعب العربي النامي ، لا تحيا الا في اطار البروليتارية القومية ، بحكم ان التناقض الاكبر ، ليس هو التناقض الاجتماعي داخل القطر ، في اصغر دائرة بشرية قومية ، ولكنه التناقض بين غالبية الوجود الشعبي القومي ضد نقيضه العالمي ، وهو الامبريالية العالمية في شكل هجومها العصري ، بما يسمى الاستعمار الجديد ، وفي وقت تتراجع فيه بعض معسكرات القوة اليسارية الدولية ، الى مخططات التلاؤم السياسي، مع ظروف التقدم التكنولوجي المشترك بينها ، وبين معسكرات الامبريالية ، الذي يبدو ، انه يحكم الآن اقوى التناقضات بينهما ، بما يبعد عنهما خطر التصادم الذري •

ان الطرح الانفصالي للصراع الطبقي يغلق الابواب امام الحركات التقدمية ، وبالتالي يجعل دعوتها تنحصر في الكواليس وبين عدد محدود من النظريين ، كما ان هذه الدعوة تبعد قطاعا كبيرا من الفئات الشعبية والمتوسطة ، وتدفعها الى احضان اليمين المتطرف وتضعف اداة المقاومة العربية في وجه الاخطار المحيطة بالوطن العربي كله • ولأن الطبقات الحاكمة المستقلة تعمل مجتمعة على تثبيت التجزئة لتستطيع متابعة استغلالها وتأمين مصالحها في دائرة القطر الضيقة • ولا شك انه يوجد داخل اليسار العربي اليوم كما يوجد داخل اليمين ، اقطاب انفصالية مستورة او مكشوفة • فاليمين القومي الذي


جنح نحو الانفصال ، عندما اضطر الى التمسك بالاوضاع الراهنة للحكومات الملكية والانظمة الديمقراطية المزيفة ، والمشائرية التقليدية فلقد وجد نفسه انفصاليا من حيث المصلحة السياسية والاقتصادية ، لطبقته وفئاته الحاكمة في هذا القرن ، ترائيا وعائليا ، ولقد عثر اليمين القومي، على ما يبرر انفصاليته الواقعية ، كنظام حكم ومصلحة طبقية ، ما ان برز اليسار القومي ليربط بين التحرر الاجتماعي والتحرر السياسي ٠

ان اليمين القومي الذي قذفته معارك التقدمية والرجعية الاخيرة ، خارج نطاق الثورية العربية نهائيا ، يقابله داخل هذه الثورية ، اليسار الانفصالي ، الذي كان خارج هذه الثورية عندما كان اليمين القومي غير متبلر بصورة منفصلة عن التيار القومي العام ٠

اي ان حركة اليمين القومي ، وخروجه بالتدريج من نطاق الثورية العربية ، يقابلها من ناحية اخرى تقارب اليسار الشيوعي ، الذي كان يعتبر انفصاليا ،الى وقت قريب ، من الثورية العربية ومحاولة اتحاده بها من داخل ، بنوايا متعاكسة ، بينها المتلائم مع الوحدة ، وبينها اللاغي له ٠

فنحن اليوم امام لوحة حركية حافلة ، تغص باشكال من تيارات تتبلور من داخل الثورية الى خارج منها ، وبالعكس من خارجها الى داخلها ٠ وبالرغم من تداخل وغموض هذه التيارات ، الا اننا نستطيع تمييز اتجاهات ، تسير نحو التثبيت والتأصل ٠ ولقد سبق الحديث عن تحليل ظواهر التداخل والتخارج هذه ، في مطلع هذا الفصل ٠ ولذلك يهمنا الآن ، في هذا المنعطف من البحث ، ان نحدد علاقات هذه الظواهر المتحركة بمسالة الوحدة والانفصال ٠٠

اليسار الشيوعي والوحدة

ولنبدا اولا بتحليل تطور الموقف الشيوعي العربي من الوحدة ، خلال تجربة الثورية العربية المعاصرة ٠ وبدون ان ندخل في تفاصيل تارخية معروفة ، فاننا نستطيع تحديد مرحلتين متناقضتين تماما من تطور الموقف الشيوعي العام ، العربي المحلي ، من الوحدة٠موقف ظهور التجارب الاشتراكية العربية ، وموقف آخر مناقض تلا ظهور هذه التجارب ، وتطور ازاءها ضمن مواقف متعددة قد توصف بالتقارب والتفهم ، ومحاولة التخطيط احيانا لاستيعابها ، وهضمها ٠

فمن المعروف ان الاعتراف بالقومية العربية كحركة ثورية وطنية وتقدمية مناهضة للاستعمار لم يصدر عن الاحزاب الشيوعية المحلية ، وانما سبقهـا المؤتمر العشرون الشيوعي الدولي المنعقد في موسكو في اواسط الخمسينيات .

وحتى صدور هذا الاعتراف ، فلقد كانت سياسة الاحزاب الشيوعية العربية ، بصورة عامة مناهضة للافكار القومية العربية ، وتطبق عليها بعض مختزلات الماركسية ، التي تتهم الحركة القومية عامة ، من وجهة ادانتها للقومية الأوربية ، المقترنة بظهور الرأسمالية .

ولكن منذ ان استطاعت الامة العربية ، ان تطل من خلال اول حكم وطني اصيل ، على المعسكر الشيوعي ، وأن تتحاور معه ، وان تحطم حصار الاسلحة الغربية ، وان تبرز ، دوليا ، في اول معركة مصير مع الاستعمار التقليدي فوق ارضها ، اثر تأميم السويس ، والغزو الثلاثي لمصر ، فلقد تنبهت موسكو بشكل خاص ، ومن خلال تطوراتها الفكرية التحولية الفاصلة في النزعة الخروتشوفية ، الى اهمية الدور القيادي التحرري ، الذي تلعبه الناصرية ، في منطقة ، كانت تعتبر الى ذلك الوقت من امنع مناطق الاستعمار التقليدي ، ضد اي نفوذ شيوعي رسمي او شعبي . لقد اعترفت موسكو بتقدمية القومية العربية ، وان يكن ذلك بتحفظ ، وجسدت اعترافها هذا ، بمساندة الناصرية ، المتمثلة في السلطة الحاكمة آنذاك في القاهرة ، وحاولت كذلك ان تؤيد تكتيكيا ضمن جبهة وطنية ، ومن خلال الحزب الشيوعي السوري ، حزب البعث ، في نضاله ضد مؤمرات الاستعمار والبرجوازية الاقطاعية والراسمالية في سوريا ، قبيل الوحدة .

ولكن في حين ان موسكو استطاعت ان تطور هذا الاعتراف بتقدمية القومية العربية المتمثلة في الناصرية ، كسلطة حاكمة في مصر ، فانها لم تستطع ان تتفهم اول ثمرة ايجابية لنضال القومية العربية عبر محور القاهرة - دمشق ، عندما اعلنت اول وحدة عربية في تاريخ الأمة الحديث ، وبعد انهيار الدولة العربية الواحدة منذ الف ونيف من السنين ، فاضطر الحزب الشيوعي المحلي ان يهرب خوفا من المد الوحدوي ليقف الى جانب اليمين الرجعي والامبريالية في محاربته للوحدة متشبثا بالحرفية الماركسية والمصلحة الاقليمية ، التي اصبحت محور التآمر الرجعي الانفصالي واداة تغطية للاوضاع المنحرفة .

وكان على تجربة الوحدة ، ان تواجه اول صراع مع الشيوعية المحلية ، ضمن دولتها النواة في القاهرة ودمشق ، وان تحتمل سوء الفهم الى حد

القطيعة مع موسكو • وان تصطدم ، بعد ذلك كله في اعنف معركة تاريخية مع الشيوعية المحلية ، في القطر العراقي ، اثر الانحراف القاسمي فيه •

ان هذا الاصطدام ، بين اول انتصار ثوري عربي ايجابي معاصر ، وبين الشيوعية المحلية والدولية ، ما زال يؤلف في الواقع ، اهم عامل اساسي ، اثر ويؤثر حتى الآن ، على كل فهم نظري ، وتطور عملي واقعي ، يحدث بين الاطراف الثورية ، ذات المنطلق القومي ، والافق التقدمي الاشتراكي ، وبين الاطراف الشيوعية المتحركة نحو لقاءات عملية ، اكثر منها عقائدية ، مع القوميين الثوريين •

لم ان تجربة هذا الصراع الشيوعي ـ الوحدوي ، بما آلت اليه آنيا من نتائج سلبية ، عاني منها الطرفان معا ، وبما بذرت من بذور لقاءات بعيدة ، ستحدث في آفاق المستقبل القريب ، ما زالت هذه التجربة غاصة بالمعاني ، التي طغت عليها قسوة الاحداث ، وتجاهل تحليلها وسبر غورها السياسيون من الثوريين • في حين انها تحت ضوء التحليل العلمي الهادىء النزيه ، تستطيع ان تمد تجربة التقارب والتحاور القائمة الآن بزاد من الخبرات والدروس في المقاييس العينية الواضحة • وفيما يتعلق بموضوع هذا الفصل الخاص بتحليل مواقف القوى اليسارية من الوحدة ، فاننا نسارع الى القول ان اهم ما نستخلصه من دروس هذا الاصطدام الدامي المؤسف ، ان الاحزاب الشيوعية المحلية ، لم تكن تملك القدرة العقلية الصافية ، بحيث تستطيع اكتشاف معنى المرحلة الاجتماعية التي فجرت ثورة الوحدة آنذاك • ولم يكن لها بالمقابل ، من القوة الذاتية ، ما تستطيع به ان تحاور ضرورات المخططات السياسية السوفيتية ، للمنطقة العربية آنذاك • وكان من جراء ذلك ، ان موسكو ما تزال حتى الآن ، غير متحمسة لاعادة ، او متابعة تجربة الوحدة السورية المصرية السابقة • وبعض الثوريين العرب ، الذين يقيمون وزنا كبيرا لعامل التقارب الروسي الاميركي العالمي الاخير ، يميلون الى الجزم ، بان روسيا ستظل تعارض قيام اية وحدة عربية سياسية مباشرة ، بنفس الحزم والعزم الذي لمخططات الامبريالية في هذه المنطقة •

وهؤلاء يقيمون حجتهم هذه ، على ان التاييد الروسي للثورة العربية ، هو سياسي بالدرجة الاولى ، اي مرتبط بمصالح الاتحاد السوفييتي الدولية • ويعتمد هؤلاء في هذا الاعتقاد على تحليل نوع التاييد الذي تلقاه بعض التجارب العربية الثورية التقدمية ، من روسيا ، فترى ان هذا التاييد ، يبدو انه كان دائما مصاحبا بنوع معين من الشروط ، التي تراعي استراتيجية السلوك



الدولي للاتحاد السوفييتي مع اعتبار أقل لمصالح الشعوب الصغيرة التي تتعامل معها .

فهل يمكن ان نجزم نحن بدورنا بان هدفية الوحدة العربية ، ما زالت تعاني من الاتحاد السوفييتي ، نفس ما تعانيه من المنع والقمع ، من قبل معسكرات الامبريالية العالمية ، الاميركية والبريطانية ؟

ان الراي القائل ، ان السياسيات الاشتراكية الاقليمية ، قد تجد من التأييد الروسي اكبر بكثير مما تجد سياسة الثورية العربية الموالية وحدويا واشتراكيا ، ما زال حتى الآن هو الراي الاقرب الى الانسجام مع المواقف الروسية الحقيقية ، من قضايا الثورية العربية ، ابتداء من تجربة الوحدة السورية المصرية ، وما تلاها من محاولات التكرار والتطوير لها ، وصولا بها الى بعض التقييمات الاكثر ايجابية ، لتقدمية الهدف نفسه . وليس من شك فانه بالقدر الذي يمتلىء النضال الوحدوي بمضمون تقدمي اجتماعي واضح ، بقدر ما يفرض نفسه على القوى التقدمية العالمية ، ويصبح جزءا من أهدافها الدولية .

هذا بالنسبة للموقف السوفييتي عامة من مسالة الوحدة . اما موقف الاحزاب الشيوعية العربية محليا ، فان ثمة اختلافات اساسية بينها وبين موقف موسكو ، وفيما بينها بالذات .

ففي حين نرى ان التحزبات الشيوعية الاساسية داخل القطر المصري ، قد استطاعت بالتدريج ان تنتقل من طور المناقض المعارض الحاد للناصرية الوحدوية الى طور المتفهم لها ، والمتفق معها ، والمؤمن بسياستها الثورية ،

دان الحزب الشيوعي السوري خاصة ، ما زال يفتقر الى ما يشبه هذا التقييم الذي انطلقت منه التحزبات الشيوعية المصرية . وما زال يجد في السياسة القطرية الثورية ، منطلقا اصبع بالتاييد والدعم ، من المنطلق القومي الاشتراكي .

والمتابع لاراء ومواقف الحزب الشيوعي السوري ، منذ مواقع الاصطدام مع ثورة الوحدة ، الى الانفصال ، الى اعادة تقييم تجربة الوحدة عربيا واشتراكيا ، الى مراحل النضال ضد الانفصال الرجعي ، وثورة آذار وما عراها من تطورات ، يلاحظ ان ثمة ازدواجا واضحا في سلوك قيادته الرسمية ،

بصرف النظر عن المواقف الفردية ومواقف الفئات المنشقة عن الحزب • ويبرز هذا الازدواج ، في تقييم غامض للخصائص التقدمية ، في الثورية العربية ، قد يقدم بعض الايجابية بالنسبة للمحاولات الاشتراكية القائمة اليوم في بعض الاقطار • ولكنه يغطي النزوع الوحدوي ، بدعوات للجبهات الوطنية • تلغي بالتدريج اساسية هذا النزوع وأولوية دوره النضالي •

ولعل هذا التردد والغموض في الاعتراف بأساسية النضال الوحدوي ، من قبل الجماعات اليسارية ذات الاصل الشيوعي ، في العالم العربي ، وفي مشرقه خاصة ، هو الذي شجع عمليا على الوصول الى وضع فكري وسياسي معين ، يؤكد انفصال جناحي الثورية العربية ، وهما الوحدة والاشتراكية • فكلما قامت دعوات تجعل من الاشتراكيات الاقليمية هدفا ينتهي عند ذاته ، فان تأكيدها لهذا الهدف هو بمثابة نفي او ابعاد ، لهدف الوحدة ، في الوقت ذاتـــه •

والحقيقة فان هذا النوع من اليسار ، لم يعد يضم الشيوعيين المنظمين ، والفئات والافراد ذات الاصل الشيوعي ، فقط ، بل لقد ضم جماعات اخرى ، تنحدر من اصول قومية ، منها ما كان في الاصل بعثيا ، ومنها ما كان اقرب الى الناصرية ، كالتبلر الماركسي الاخير الذي اصاب بعض اجنحة حركـــة القوميين العرب •

وليس من شك ، فان انتكاس العمل الوحدوي ، الذي كان يستهدف اعادة بناء الوحدة السورية المصرية ، في السنتين او الثلاثة التي اعقبت انهيار ميثاق السابع عشر من نيسان عام (١٩٦٣) الذي حاول ان يضع صيغة حكم بعثي ناصري كاساس لدولة وحدة ثلاثية جديدة ، تتألف من القاهرة ودمشق وبغداد ، هذا الانتكاس ، وما تبعته من ظروف سياسية دولية وعربية ، قـــد ساعد على انماء موقف اليسارية الاقليمية •

ان الشيوعية في المشرق العربي ، تحاول جاهدة ، ان تتخذ من تجربة حكم القيادة القطرية البعثية لسوريا ، ما يشبه النموذج الثوري ، عما يجب ان تعمل من اجله جميع اليساريات العربية على الرغم من كمية الاعتراضـــات الداخلية ، التي تزيد وتنقص ، للشيوعية على سياسة الدولة البعثية القطرية في سوريـــا •

لقد اضطرت ظروف قيام مد رجعي امبريالي في المنطقة العربية ، الـــى قيام دعوات نحو توحيد الفئات والاحزاب اليسارية ، من قومية وشيوعية ،



قيام دعوات نحو توحيد الفئات والاحزاب اليسارية ، من قومية وشيوعية ، الى جانب اللقاءات بين الدول العربية التقدمية ، وهذا ما ساعد على تحطيم جزء من الحصار المضروب حول حكم ٢٣ شباط ، المستمر في دمشق •

ومن ناحية اخرى ، فان بعض المظاهر السياسية ، تنبيء عن ان الاتحاد السوفييتي ، يفيد من ظروف استمرار تجربتين في المنطقة ، احداهما تتصف بالوحدوية الاشتراكية ، في القاهرة ، والثانية تمثل القطرية الاشتراكية ، في دمشق • وكلاهما تحتاجان الى تأييده ودعمه لهما ، اقتصاديا وعسكريا •

فان انتقال التناقض بين القاهرة ودمشق ، من المستوى الاول ، الى مرتبة ثانوية ظاهريا على الاقل ، امام بروز التناقض الثوري الرجعي الى المرتبة الاولى من احداث المنطقة ، ومناوراتها الخفية ، قد ساعد على رجحان الدعوة القطرية ، داخل اوساط اليسار ، في حين ان بروز شعار وحدة الثوريين العرب ، قد ساعد هو بدوره ايضا ، على تثبيت الفكرة القائلة ، بان الظروف الحاضرة، لا تؤيد قيام تجارب وحدوية سياسية • وعلى هذا فان اليساريين القطريين فسروا تأجيل شعار الوحدة السياسية او الكيانية ، بما يشبه الالغاء النهائي له ، حتى ظهرت تقييمات عقائدية ، من منشورات حزبية وتصريحات علنية ، توحي بان ثمة تيارا متطرفا يصل الى حد وضع الشعار الوحدوي ، في الطرف المناقض للشعار الاشتراكي الماركسي ، واتهام الوحدة بانها هدف يميني •

ولكن الشعور العام لدى اليسار العربي الجديد بالمقابل ، لا يرى في شعار « وحدة الثوريين » ، هدفا نهائيا ، يلغي شعار الوحدة الاصيلة • اذ أن هذا اليسار الجديد يرى أن الوحدة ، ينبغي الا تحققها الدول ، ولكن الشعوب ، بما يمثلها من حركات ثورية عربية • ولذلك فان شعار وحدة الثوريين هو وسيلة وليس غاية • انه الطريق الواقعي الى انشاء الدولة الوحدوية المنشودة •

ان اليسار الوحدوي اذن يتميز عن اليسار الشيوعي الاصلي ، والمتمركس حديثا ، ليس من حيث ان هذا اليسار الوحدوي يعطي الاولوية لهدف الوحدة ، في حين ان اليسار الآخر يقدم عليها هدف الاشتراكية ، من حيث العقيدة ، والتحقيق العملي ، ولكن التمايز بينهما هو اعمق من هذا • ذلك ان اليسار الشيوعي والمتمركس ، يريد ان يجعل من التجارب الاشتراكية الاقليمية ، بديلا نهائيا عن الثورية العربية الشمولية •

ولكن قيام تجارب اشتراكية انفصالية ، لا يلبث حتى يولد تناقضا فيما بينها في خط المزايدات اليسارية • وان هذا التناقض المصلحي سوف يحاول ان يغطي التناقض التاريخي ، وهو التجزئة • فاما ان تسير هذه التجارب نحو التفاهم فالتداخل ، فالاتحاد ، او الوحدة ، واما ان تستمر في اقليميتها • وعندئذ لا بد ان تقع في صراع مع شعوبها ، التي يحركها التناقض التاريخي الاصلي ، وهو عامل التجزئة والانفصال • وهذا ما سوف يمزق الثورية العربية ، ويجعل التقدمية ذاتها ، في تناقض تاريخي مع الوحدوية ، التي هي جوهر الانبعاث العربي المعاصر • وبدونها ، فان الاشتراكيات الانفصالية ، سوف تنهار ، بفعل العجز الاقتصادي والبشري والجغرافي ، الذي تعانيه من جراء اختناقها في اقاليم ، مصطنعة الحدود ، ضئيلة الامكانيات •

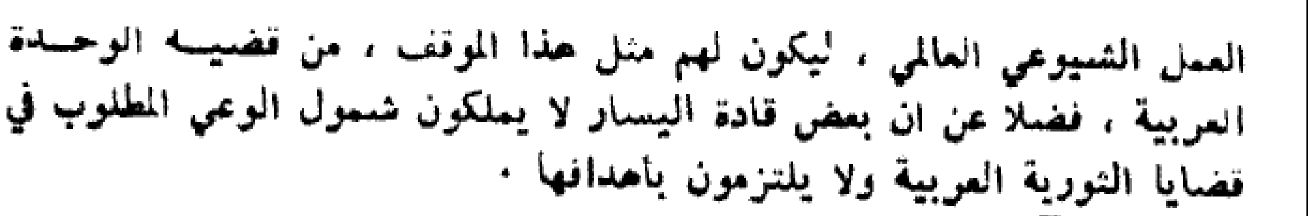
وان ما يدعو الى الشك في حقيقة الموقف اليساري الانفصالي ، شيوعيا كان ام قوميا متمركسا ، هو مناقضته لجوهر الماركسية ذاتها ، ولدروس الممارسة الاشتراكية في كل من الاتحاد السوفييتي والصين •

ففي حين ان الماركسية في متونها ، تنزع الى جعل الثورة العالمية هي مقياس اصالة كل ثورة محلية ، وفي حين ان الثورة البلشفية في روسيا اجتاحت اكبر مجال حيوي لها ، فسيطرت على عشرات القوميات وانشأت الاتحاد السوفييتي ، على مساحة جغرافية وبشرية واقتصادية هائلة ، فان هذا اليسار في الارض العربية ، ما زال يجهد للسير في حركة معاكسة تماما ، من الاتساع نحو الضيق ، ومن الوطن العربي الواحد ، الى الاقاليم المجزأة بفعل الرجعية والامبريالية • ومن امكانيات هائلة لوطن عظيم ، الى اضعف الامكانيات في اقطار شبه عاجزة اقتصاديا عن اعالة نفسها •

فما الذي يجعل بعض الشيوعيين والمتمركسين العرب ، يناقضون الماركسية ، ويتجاهلون حقائق التجارب الاشتراكية العالمية ، ويعاندون في فهم دروس المد والانتكاس الثوري في المنطقة العربية ويروجون للعقيدة الاشتراكية اللاقومية ، التجزيئية والانفصالية !

ذلك هو السؤال ، الذي لن نجد له جوابا الا اذا عدنا الى منطلق هذا التحليل ، وهو ان العامل السياسي ما زال هو الاقوى والافعل من العامل الثوري العقائدي ، في صراعات اليسار العربي الداخلية • اي ان اصحاب اليسار الانفصالي ، مساقون بضغوط سياسية حزبية ، ومركزية من عواصم





العمل الشيوعي العالمي ، ليكون لهم مثل هذا الموقف ، من قضية الوحدة العربية ، فضلا عن ان بعض قادة اليسار لا يملكون شمول الوعي المطلوب في قضايا الثورية العربية ولا يلتزمون بأهدافها ·

فالانفصال اليساري اذن ، ليس شيئا عارضا ، ليس خطأ يحتمل التصحيح بالوعي والجدل العلمي ، ولكنه سياسة منظمة مدروسة · وهو حين يتقنع بالماركسية ، فانه يريد ان يقيم حاجزا دائما بين النزعة القومية ، وكل مضمون علمي · ذلك أن اصحاب الموقف اليميني ، داخل الصف القومي، يتذرعون بانفصالية هذا النوع من اليسار ، لكي يدان التفكير الاجتماعي كله ، متهما بالماركسية والشيوعية · فالثورية العربية تعاني من تطرف اليمين ، الى درجة محاربة الوحدة ما دامت مقترنة بالتحويل الاشتراكي ، ومن تطرف بعض فئات اليسار الشيوعي ، والقومي المتمركس ، الى درجة محاربة الوحدة بحجة اتهام المنادين بها ، بالرجعية او المحافظة ·

اي ان الثورية العربية تقف في منتصف الطريق بين تطرف اليمين ، وتطرف اليسار الشيوعي ولكنها قلما توفق الى المحافظة على مركزها ذاك ، بين قطبين يتجاذبانها من كل طرف ، ليعطيها كل منهما وجهه الخاص ·

ان التوجه الذاتي لنضال الثورية العربية ، هو نضالها من اجل توضيح شخصيتها واستقلالها الفكري ، بين تيارات اليسار واليمين · وان أهم ما يميز هذه الشخصية الخاصة بالثورية العربية ، هو انها من بين ثورات العالم المعاصرة ، تؤلف واحدا من اعظم نماذج الحلول المستقبلية لنمط حياة الانسان الحرة ، عندما تستطيع هذه الانسانية ان تتجاوز احراج الاختيار الصعب بين التبعية للشيوعية الرسمية او للراسمالية الاميركية · ذلك ان الثورية العربية ، استطاعت حتى الآن ، ومن خلال مواقف الممارسة العملية ، ان تحقق اهم خصائص الثورة المفقودة ، والتي ترمز بامكانياتها الاولية البسيطة ، الى مسيرة التطور التاريخي الانساني ، عندما يستطيع ان يتخلص من عقدة الصراع الراسمالي الشيوعي ، ليفسح مجالا امام انبثاق المجتمع القومي الايجابي ، من فوق انقاض الصراع الطبقي داخله ، والصراع البروليتاري الراسمالي في نطاق العالم ·

فمنذ ان انفجر الصراع العالمي بين الشيوعية والراسمالية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، فان المركب الحقيقي لهذا الصراع انعكس على نوع ثالث من التحرك التاريخي ، هو الثورات القومية البروليتارية التي مارستها



كانت من الثورة الامريكية ، الى الثورات القومية البروليتارية التي [illegible]
شعوب جديدة ، استهلكت تناقضاتها الطبقية ، والحضارية الدينية الخاصة بها من الداخل في تناقضها الاكبر مع الاستعمار الامبريالي الغربي ، خارجيا • والثورية العربية ، كانت من ابرز مظاهر هذا النوع الثالث ، من التحـرك التاريخي • ولقد عبرت السياسة تعبيرا سيئا عن هذا النوع الثالث ، عندما وصفته بالحياد بين المعسكرين ، فهو في الواقع ليس حياديا ، ولكنه تركيـب تاريخي اجتماعي ، هو من اجلى ملامح العصر ، حيث انتقلت فيه تفاعـلات الاحداث من نطاق الدول المغلقة او القارة الواحدة ، الى نطاق العالم • وكان من اعمق نتائج تفاعل الاحداث الدولية هو تولـد التركيـب التاريخـي الاجتماعي ، الذي يمثله نوع التطـور في المجتمعـات ، ذات الصفـة القوميـة البروليتارية ، في صراعها مع الامبريالية الدولية •

اي ان الثورية العربية ، هي ثورية القومية الشعبية ، في هذه المنطقة من العالم ، ولذلك فان نزوعها الوحدوي ، ليس صفة طارئة عليها من الخارج ، وليس خاصة بمرحلة من التطور • بل هو يمثل في الحقيقة ، اساسها التاريخي المميز • فالطابع الشعبي للقومية العربية ، ظاهرة يومية واقعية في الممارسة الثورية • وهو الذي يؤلف السياق البشري لمفهوم الوحدة العربية • ومـن ناحية اخرى ، فان مفهوم الوحدة هذا ، لا يقوم على عملية استرجاع اصطناعي لوحدة تاريخية انصرمت بانصرام ظروفها وانقضائها • بل لقد تولد مفهـوم الوحدة جديدا ، من وهج النضال الشعبي ضد الاستعمار • فالتناقض الاكبر بين الشعب العربي في كل قطر مع الاستعمار ، هو الذي كشف وحـدة الشعب النضالية ، ضد وحدة العدوان الاستعماري عليه •

واذا تعمقنا دوافع هذا التناقض ، لم نجد الوطنية المثالية هي التـي تحرك الشعب المناضل ، ولكن المصالح الحيوية ، والحضارية ، هي التي دفعت الى الثورات العربية ، وهي التي اعطت للثورة العربية ، من اصلها ، الصفة الشعبية النضالية • وبالتالي فان الصراع ضد الاقطاعية والبرجوازية العالية الناشئة ، في ظل الاقطاع القديم ، المحلي ، والاستعمار الجديد الخارجي ، انما يستمد قواه من نفس ينبوع الصراع الاشمل ضـد الاستعمار والتجزئـة الجغرافية •

فالانحلال المستمر طيلة قرون متتابعة لكيان المجتمع العربي القديـم ، خلف اشكالا من التعضيات المتجزئة داخل هذا المجتمع • وجاء الاستعمار ، فدعم هذه التعضيات بتجزئة جغرافية سياسية ، افقيا • ثم جسـم هـذه التعضيات داخـل كـل مجتمـع قطـري علـى حـدة • وحـاول ان يغطي الصـراع القومـي البروليتـاري ، بتغذيـة هـذه التعضيـات الانحلالية



القديمة ، والباسها ثوبا عصريا برجوازيا • اذ ان الاوضاع التجزيئية ، من طائفية ، وعشائرية ، ريفية ومدنية ، عواصم واقاليم ، قد دعمت باشكال من التفاوت الاقتصادي • فاعطت بعض الطوائف امتيازات تمتع بها زعماؤها ، على حساب ابنائها ، وابناء الطوائف الاخرى ، وكذلك بالنسبة لبقية مظاهر التجزئة •

اي ان التبرجز والتحول والاستثمار لم يأخذ شكلا طبقيا ، بقدر ما استفاد من اوضاع التعضيات التجزيئية في مجتمع الانحلال الحضاري • وهكذا فان فئات الاستثمار بين الكبار ، يجدون سندهم الطبيعي في الابقاء على دعائم الانحلال ، كما هي متمثلة في الاقطاع والعشائرية وغيرها ، داخليا ، وفي التحالف مع مخططات الاستعمار الجديد خارجيا •

فالثورية العربية عندما انطلقت من النضال الوحدوي اساسا تاريخيا ، وقوة اجتماعية شعبية متحققة في الممارسة اليومية ، كان عليها ان تصطدم بالتجزئة افقيا ، من الناحية السياسية والجغرافية ، وعمقيا في هرم المجتمع ، من الناحية الاقتصادية والعقائدية ، وبالنسبة لوضع تركيب البنيات كطوائف وفئات وعشائر ، ومجتمعات مدنية وريفية وسواها ، داخل هذا الهرم •

ومن هنا فان المستفيدين من واقع التعضيات الانغلاقية المختلفة ، داخل المجتمع العربي لكل قطر على حدة ، اظهروا استعدادا واضحا لطرح صيغ مختلفة لانواع من الوحدة ، شرط الا تتعدى حدود الوحدة السياسية ، من القمم الحاكمة ، وبمادة هذه القمم البشرية والطبقية والعقائدية •

لقد ادركت الماركسية ان تغيير العالم ، لا يمكن الا ان يكون طبقيا ودوليا ، اي افقيا وعموديا في وقت واحد • وان الاكتفاء بعامل دون آخر ، انما هو اجهاض لطبيعة الثورة العالمية المنشودة ••

ومن وجهة النظر هذه ، التي تؤلف جوهر الكشف الماركسي ، تبدو خطورة التناقضات الناشئة عن انحراف السياسات الرسمية للاحزاب الشيوعية المحلية في الاقطار العربية ، ومعها السياسة الخارجية لبعض الدول الاوربية ذات العنوان الشيوعي الماركسي •

فان اعتبار القومية العربية شكلا من اشكال القومية الغربية ذات الطابع العنصري والعدواني ، المرتبط بنمو الراسمالية الغربية خلال القرن التاسع عشر ، انما يتضمن مغالطة فكرية كبرى •

ان هذه المغالطة تريد ان تعمم الحكم بالفساد والانحراف على جزء من الموضوع ، ليشمل كامل اجزائه الاخرى •

فالقومية العربية ، ذات المحتوي الشعبي الثوري ، والتي اثبتت نضاليتها البرونيتارية ، والتقائها الحتمي بالاشتراكية ، ليست هي سوى الفعالية التاريخية الوحيدة ، التي تعبر عن انفجار التناقض المحتوم بين القومية البروليتارية ، وبين الرأسمالية الامبريالية ، في هذا الجزء من العالم •

وليس من شك ، فان نضال القومية العربية ، وغيرها من القوميات البروليتارية لدى الشعوب الجديدة المتحررة من الاستعمار ، قد طرح تغييرا حاسما في صلب الماركسية ، يمكن اعتباره تطورا داخليا لمعطياتها الاساسية ، اكثر منه تناقضا وتهافتا ذاتيا •

هذا التطور هو الذي يعطي للقومية البروليتارية ، في ظروف الصراع الدولي الحاضر دور الأولوية في قيادة الثورة الاشتراكية العالمية ، ويقدمه على دور الطبقة داخل المجتمع الرأسمالي المتطور الغربي ، الذي كان اشبه بحجر الزاوية الاساسي ، لكل ثورة اشتراكية محتملة •

لقد كان «لينين» في الواقع ، من اقدر القادة الاشتراكيين المفكرين ، على التنبؤ بطلائع هذا التطور المحتمل ، بناء على اكتشاف اهمية يقظة الشعوب المستعمرة ، ابتداء من اوائل هذا القرن •

وحين استطاعت موسكو ان تتحرر من الستالينية ، كان من المنتظر ان تحدث الانفتاحات الهامة التي حققتها القيادة الخروتشوفية الجديدة ، على قضايا العالم الثالث ، تحولا هاما يمهد لتقييم الثورات القومية ، على أساس دورها العالمي الجديد ، في محاربة الراسمالية ، من مكامن قوتها الاولى ، وهي السيطرة على مصادر المواد الخام ، واسواق تصريف البضائع المصنوعة ، والسيطرة على الاستراتيجية العسكرية الدولية ، المرتبطة بهدف حماية هذا الاستغلال الدولي الشامل ، في اوطان الشعوب الجديدة • غير ان التغيرات الخطيرة المتلاحقة ، التي اعترت اهداف الانتاج داخل الاتحاد السوفييتي ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وضرورات التسابق في المجالات النووية والفضائية ، مع الولايات المتحدة ، وبروز معسكر ثوري جديد ، تقوده الصين الشعبية ، كل هذه العوامل ، جعلت السياسة واعتباراتها ، تسيطر على اعتبارات



الثورة ، ورعايتها في دول العالم الثالث ، وأخذ الاتحاد السوفييتي يسيـــر تدريجيا الى ما يشبه سلوك الدولة الكبرى ، المقدر بحسب ضرورات مصالحه الخاصة اولا ٠

وهكذا يجب ان نميز داخل الموقف الشيوعي من قضية الثورية العربية ، ومحركها التاريخي الوحدة ثلاث علاقات ، لا تخلو من تناقض وتعارض فيما بينها ٠ وهـي :

العلاقة النظرية اجمالا مع الماركسية في متونها الفكرية الاصيلة ومدارسها المتطورة ، والعلاقة مـع سياسيات الـدول الشيوعيـة الكبـرى ، بقطبيهـا المتصارعين : الاتحاد السوفييتي ، والصين ٠ والعلاقة مع الممارسات المحلية للاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ٠ وهذا ما حاولنا ان نفعله نحن خلال هذا الفصل ٠ وقد تبين لنا ، انه بالقدر الـذي تتضارب فيــه السياسيات الدولية للشيوعية الرسمية والحزبية المحلية ، بالنسبة لهدف الوحدة ، فان التقييم الثوري للطابع الشعبي التقدمي ، الذي حققته ثورية الوحدة العربية عمليا ، في سلسلة معارك فاصلة مع الاستعمار ، يعد مادة تاريخية وفكريـة خصبة لنشوء نظرية القومية البروليتارية ٠ هذه النظرية لا تتعارض مـع اسس الماركسية ، في متونها الاصلية ، وعند اصحابها الاوائل ، بقدر ما تؤلف تطويرا مهما لهذه الاسس ، وتوسيعا لافق تطبيقاتها ، بحيث يبقى المنهج الجدلي الحضاري ، هو المنهج الاول لنمو نظرية القومية البروليتارية ، مـع اهتمامه بمحصلات التجارب المستحدثة ، في ميدان الثورات المتطابقة مع هذه النظرية ٠

